أهمية دراسة النقوش العربية فى شبه القارة الهندية

بقلم : الدكتور محمد يوسف صديق

تعتبر شبه القارة الهندية من أقدم وأهم مراكز الحضارة والثقافة فى العالم. و هى أيضا من أقـدم البلاد التى سكنها الإنسان حيث عثر على هياكل بشرية قديمة يرجع تاريخها الى ما قبل آلاف السنين[1]. ، كما وجد بها بعض أقـدم النقوش على الأحجار التى تمثل ارتقاء الحضارة الإنسانية المبكرة فى هذه البقعة من الأرض.

فالرسوم المنقوشة على الصخور التى عثر عليها فى أطراف وادى سوهان بمقاطعة كيملفور فى الفنجاب وفى وادى گلگت الذى يقع بالقرب من الحدود بين باكستان والصين تدل على سكنى هذه المناطق فى عهد جديد من الحضارة فى الفترة التى ترجع الى ما قبل عشرة آلاف سنة[2].

ونلاحظ فى بعض هذه الرسوم المنقوشة على الصخور فى وادى سوهان أن سكان هذه المنطقة عرفوا استخدام بعض الحيوانات مثل الجاموس والبقر

(1) P. Boryskovsky, 'Traces of Fossil Ape-Men'. The Pakistan Times, Nov. 5 1974.

(2) J. M, Crawford, '30,000 Years Old Petroglyph'. The Pakistan Times, Sep. 10, 1972.

والفيل فى الزراعــة كوسيلة من وسائل النقل . ومن الجدير بالذكر أن صورة الحصان غير موجودة فى هذه الرسوم وذلك لأن أهالى الهند لم يعرفوا الحصان إلا بعد ما جاء به الآريون خلال فتحهم لهذه البلاد .

و نعرف من هـذه الأمثلة أن أهالى الهند كانوا مدركين أن النقوش والرسوم كانت من أقوى الوسائل للتعبير عن شعورهم و موهبتهم الفنيــة والتى كانت تبقى مصانة من التلف لمدة طويلة . ولم يبدأ النـاس فى استخدام الحروف للكتابة فى تلك الفترة ، غير أننا نلاحظ فى أن بعض هــذه النقوش قد تشبه الهيروغليفية الى حد ما ، الأمر الذى يدل على اقتراب سكان هذه المناطق من استخدام الحروف فى وقت غير بعيد من تلك الفترة .

ومن العسير جــدا أن نعرف أقدم الخطوط أو الحروف فى شبه القارة الهندية ، غير أن العثور على بعض الكتابات المنقوشــة على الطين أو الآجر فى المراكز الأثريـة فى هربا و موهنجودارو يدل على وجود استخــدام الحروف فى وادى السند منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة ، غير أن هذه الكتابات التى كتب باحدى اللغات الدرافيدية السائدة فى تلك الفترة لم يتمكن أحد من قراءتها حتى الآن .

و اذا كانت هجمات الآريين على الدرافيديين قـد أدت الى انهيـار معظم مراكزهم الحضارية الثقافيـة القديمة ، فان هــذا الشعب الفاتح الجديد قد تمكن من انشاء حضارة جديدة على أنقاض الحضارة الدرافيديــة وروج الآريون فى الهند الحروف الجــديدة وهى الحروف السنسكريتية التى كانت أكثر تقدما من الخطوط السابقـة .

واتخذ الآريون أيضا الرسوم والنحت كوسيلة رئيسية للتعبير عن شعورهم

و تسجيل أحداثهم ، فالرسوم و النقوش التى وجدت فى كهوف اجانتا ، و الورا وكاجوراهو ، وفى جزيرة الفانتا[١] تدل على مدى تطور فنون الرسوم فى تلك العصور . ولم يقتصر الهنود على نقش الكتابات على الصخور و الكهوف فقط ، بل عثر على كثير من اللوحات الكتابية الحجرية و البرونزية و النحاسية والخشبية فضلا عن أوراق شجرة النخيل (Palm leaves) التى ترجع إلى عصور ما قبل الاسلام[٢].

وقد اشتهر الامبراطور أشوكا بتشديد الأعمدة التذكارية فى شتى أماكن امبراطوريته فى الهند التى كانت تكتب عليها النظم والنصائح الدينية والأخلاقية المستنبطة من الديانة البوذية . ولاتزال بعض هذه الأعمدة المنقوشة بالكتابات محفوظة فى أماكن مختلفة فى الهند . و يتضح من هذا كله أن أهالى الهند شعروا بأهمية النقوش الكتابية منذ أن عرفوا الحضارة وبدأوا فى استخدامها منذ عهد بعيد .

ولا شك أن شبه القارة الهندية عاشت أهم عصورها التاريخية والحضارية منذ الفتوحات الاسلامية التى بدأت فى حقيقة الأمر فى نهاية عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٩هـ/٧٠٧م) حيث غزا الجيش الاسلامى تحت قيادة الفاتح العظيم محمد بن القاسم السند وفتحها[٣]. و هكذا أصبحت هذه

(١) هذه الجزيرة تقع بالقرب من الميناء البحرى فى بومباى على غرب الهند .

(٢) للتفاصيل انظر الكتاب : N. G. Majumdar, Inscriptions of Bengal Vol. III, (Rajshahi : Varendra Research Museum, 1929).

(٣) أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، القاهرة مكتبة الآداب و مطبعتها بالجماميز ، ١٣٣٧ هـ ، ج ١ ، ص ٥٤ — ٦٠

المنطقة فى الهند جزءا من العالم الاسلامى وبدأت تزدهر فيها الحضارة الاسلامية التى كان لها أثر عميق فى الحياة الثقافية.

ومن المعروف أن المسلمين منذ فجر الاسلام كانوا يهتمون بالكتابات العربية وتطورها وازدهارها اذ أن الاسلام شجع على القراءة والكتابة، وكان الحكام والأمراء و الأغنياء المسلمون مولعين بكتابة النقوش التذكارية على العمائر، وقد جرت العادة أيضا فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى نصب شواهد القبور فى المقابر والأضرحة وجميع هذه العادات والتقاليد حملها المسلمون معهم عند دخولهم بلاد السند. فلا عجب اذ نجد أن أول نقش عربى عثر عليه فى هذه المنطقة يرجع تاريخه الى سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م بعد ما يقرب من عشرين سنة من فتح المسلمين للسند. وهذا النقش الذى يسجل اسم مروان بن محمد مولى أمير المؤمنين عثر عليه فى خرائب مسجد جامع فى بنبهور على بعد ٤٠ ميلا من كراتشى فى السند(١).

ولا نبالغ اذا قلنا: ان هذه اللوحة تمثل أحد النماذج الرائعة للخط الكوفى المبكر التى عثر عليها فى المشرق الاسلامى. ومن هذا النقوش نستطيع أن نستدل بأن الحكام والأمراء المسلمين فى الهند كانوا يستخدمون اللوحات التذكارية منذ بداية حكمهم، وفضلا عن هذا، فان النقوش الكتابية كانت تعتبر من أهم العناصر الزخرفية للعمارة الاسلامية فى تلك الفترة اذ نادرا ما كانوا يشيدون العمارة خالية من الكتابات التذكارية واللوحات التأسيسية، وكان الهدف من وراء ذلك تخليد اسم صاحب العمارة ومشيدها والسلطان المعاصر وكذلك تاريخ التشييد.

(1) Pares Islam Sayed Mustafizur Rahman, Islamic Calligraphy in Medieval India, (Dhaka University Press Limited, 1979), PP 22-23

ولم يمتد حكم العرب فى الهنـد فى هـــذه الفترة من منطقة السند وبعض الأجزاء من الفنجاب وأطرافها إلى مناطق الهنـــد الأخرى ، والتى كانت تشكل جزءا صغيرا من بلاد الهند على حدودها الشمالية الغربيـة ، وبالرغم من ازدهار العمارة والفنون فى السنـــد الاسلامية فى هـــذه الفترة التى تحدث عنهـــا بعض المؤرخين العرب القدامى ، فان لدينا قليلا من النقوش الكتابية و التحف الفنيـة الأخرى التى توضح لنا مستوى فن الكتابـة الذى وصل اليـه المسلمون فى تلك الفترة . وأغلب الظن أن الفنانين المسلمين كانوا يستخدمون الخط الكوفى فى هذه الفترة ٩٢–٥٨٧هـ / ٧١٠–١١٩٢م حيث أن النقش الثانى المؤرخ ٢٩٤هـ / ٩٠٦م والذى عثر عليـه فى السند أيضا منقوش بالخط الكوفى. والجدير بالذكر أن هذه الفترة كانت فترة سيادة الخط الكوفى الذى كان يستخـدم فى جميع أرجاء العالم الاسلامى لأغراض شتى .

و فى نهايـة هذه الفترة شملت الفتوحات الاسلامية الجديدة المناطق الشمالية للهنـد تحت قيـادة سلاطين غزنة . وأشهرهم السلطان محمود الغزنوى الذى غزاها سبع عشرة مرة فى مدة سبعة وعشرين عاما ، فيما بين ٣٩١هـ–٤١٧هـ / ١٠٠٠م – ١٠٢٦م ، وخضع له جزء كبير من شمال الهند وغربها .

وعلى الرغم من أن السلطان محمود قد تمكن من شن الغارات الناجحة على كثير من الأماكن الهامة والتى أدت الى القضاء على القوات العسكرية الهندوكية . غـــير انه لم يحتفظ بجميع الأراضى التى فتحهـــا بل اكتفى بالاحتفـاظ بمنطقة الفنجاب و المنطقـة التى تعرف الآن باقليم الشمال الغربى للباكستان (١) ، وكذلك بعض أطراف هاتين المنطقتين . وكانت العاصمـــة لهذه السلطانة العظيمة

(١) هذه المنطقة تقع على حدود أفغانستان وعاصمتها الآن مدينة بشاور .

غزنة[١] التى ازدهرت فيها العمارة والفنون الاسلامية حتى أنها أصبحت أشهر المدن الفنية فى العالم الاسلامى . وعلى الرغم من أن سلاطين غزنة وحكامها قد تركوا لنا كثيرا من النقوش والكتابات الأثرية فى عاصمتهم ، فانه لم يبق منها إلا القليل بسبب كثرة الحروب و الأحداث التى مرت بها . وقد سبق أن أشرنا الى أن الخط الكوفى كانت له السيادة أيضا فى سلطنة غزنة و ولاياتها فى الهند فى هذه الفترة . ومن النقوش الاسلاميـــة القليلة فى الهند فى هذه الفترة . نقش هوند (Hund) المؤرخ ٤٨٢هـ/ ١٠٩٠م والذى كتب بالخط الكوفى[٢] .

أما الفترة الثانية للحكم الاسلامى فى الهند (٥٨٧—٩٣٣هـ/ ١١٩٢—١٥٢٦م) فقد اتسعت حدود دولة المسلمين وشملت معظم البلاد تقريبا ، واتخـــذ الحكام والسلاطين المسلمين دلهى حاضرة لهم لأول مرة . و ازدهرت العمارة و الفنون تحت رعايتهم وتركوا لنا فى هذه الفترة كثيرا من روائع الفنية . ومعظمهم كانوا يهتمون بفن الكتابة و يشجعون عليه . وقد عثر على نقوش عربية كثيرة ، وهى تدل على مدى اهتمامهم بفن الكتابة والخط .

وعلى الرغم من اقبال الفنانين على استخدام الخط الكوفى لفترة بسيطة فى بداية الأمر . فانهم اتجهوا الى كتابة خطى النسخ و الثلث فى العصور التاليـــة : وفى نفس الوقت نلاحظ أن بعض الفنانين فى شرق الهند خاصة فى منطقة البنغال مالوا إلى استخدام نوع من الكتابات المتشابكة التى عرفت فى هذه المنطقة بخط الطغرا ووصل هذا الأسلوب الى منتهى الجودة فى عهد السلاطين قبل وصول المغول الى الهند .

(١) لا تزال هذه المدينة باقية فى أفغانستان الحالية .

(2) Mustafizur Rahman, Islamic Calligraphy, PP 23-24

وقد ظهر بعض الأساليب الكتابية المحلية أيضا ومن بينها الخط البهارى الذى كان فى الغالب يستخدم لكتابة المصاحف فى بعض مناطق الهند. والواقع أن سلاطين الهند كانوا متحمسين لجودة الخط وزخرفته منذ بداية الأمر. واشتهر بعضهم فى فن الخط. فالسلطان ناصر الدين كان خطاطا ماهرا. ويقال أنه كان يبيع نسخ القرآن الكريم التى يكتبها بنفسه حتى يرتزق منه هو وأهله. ويذكرلنا ابن بطوطة أنه شاهد نسخة من القرآن الكريم التى نسخها السلطان ناصر الدين محمود شاه عند القاضى كمال الدين وذلك أثناء زيارة ابن بطوطة لمدينة دلهى(١). كذلك يذكر أيضا أنه قابل خلال رحلته فى الهند خطاطا ماهرا اسمه رتن فى مدينة جانى على شاطىء نهر السند. كما أن الاسم يشير الى أن هذا الخطاط كان رجلا هندوكيا ونستطيع أن نستدل من هذا على أن غير المسلمين أيضا شاركوا فى الخطاطة الاسلامية.

وازدهرت فى هذا العصر أسواق الكتب فى دلهى والمدن الأخرى التى ساعدت على انتشار التعليم والخطاطة بصفة عامـــة. وفى نهاية هـذه الفترة قبيل قدوم المغول الى الهند، تعرفت البلاد أيضا على خط النستعليق الذى أصبح خطا رئيسيا فى نهاية القرن العاشر بعد استقرار حكم المغول.

وكان لفتح المغول لبلاد الهنـــد تحت قيادة السلطان ظهير الدين محمد بابر شاه فى سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م أثر كبير فى الحضارة والثقافة الهنـــدية، فالفترة المغوليـة التى هى الفترة الثالثـة لحكم المسلمين فى الهند — كانت لها صلات قوية بايران ووسط آسيـا. وكان سلاطين هـــذه الفترة عـلى درايـة كبيرة بالعلوم

(١) أبوعبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى: «رحلة ابن بطوطة» بيروت، دار صادر، ص ٤٢٤

والفنون ، وكان لديهم ذوق فنى عالى . فمؤسس هـذه الأسرة الامبراطور بابر كان خطاطا ماهرا و ينسب اليه ابتكار خط جديد باسم « خط بابرى ». ولكن المصادر لا تمدنا بشىء كثير عن هذا الخط . وليس لدينا نماذج له حتى نعرف قواعده أو أوصافه ، ويقال ان بابر اتخـذ هـذا الخط لنفسه لكتابة الخطابات السرية بينه وبين أفراد حكومته .

و يزعم المتشرق الروسى الدكتور عظيم زانوبهـا بأن الخط البـابرى كان عبارة عن حروف جديدة يقارب عددهـا من ٢٨ حرفا وهى تشبـــه إلى حد كبير الحروف العربية و لكنها كانت خاليـة من الاعجام ، وضم إليها أربعـــة أحرف زائدة تمثل الأصوات التى لم تكن موجودة فى اللغـة العربية وهى حرف ژ[١] (مثل (J) فى الفرنسية) وچ (Ch) و پ (P) وگ (G) التى توجد باللغة الفارسية[٢].

وكان ولى عهـده الامبراطور همايون أيضا خطاطا ماهرا . ونعرف بأنه بعد عودته من ايران واسترجاع ملكه فى دلهى ، صبغت ثقافـة الهند بالصبغـــة الفارسيـــة حيث دعا كثيرا من الفنانين و الرسـامين و الخطاطين الايرانيين الى الهند . وقد لقوا حفاوة بالغة فى البلاط المغولى بدلهى . وتأثرت الحياة الثقافيـة بهذه التطورات حتى فن الخط و الكتابة حيث مال الفنانون الى استخـدام خط النستعليق الذى كان أكثر الخطوط استعمـــالا فى ايران . على الرغم من أن الحـكام المغول اهتموا اهتماما كبيرا بالرسم و التصوير ، وتوضيح المخطوطـات

(١) صوت هـــذا الحرف يشبه صوت حرف (J) فى كلمـــة JOURNAL فى اللغة الفرانساوية .

(2) K. A. Nizami, « The Twenty-Six Session of the International Congress of Orientalist », Islamic Culture (April 1964): P 163.

بالصور الملونة ، فانهم تركوا لنا نماذج عديدة من الكتابات الجميلة على اللوحات الحجرية التى نجدها فى المقابر والأضرحة والقلاع والقصور والمساجد وغيرها من المنشآت الفخمة فى هذا العصر ، فحكام هذه الأسرة الذين خلفوا الامبراطور أكبر مثل جهانكير وشاهجهان وأورنكزيب جميعهم كانوا يجيدون فن الخط مثل أجدادهم . وكان لدى الأباطرة المغول مكتبات زاخرة بالمخطوطات وكانوا يوقعون على صفحاتها افتخارا بحوزتهم لهذه المخطوطات . ولا تزال بعض هذه المخطوطات محفوظة فى متاحف الهند ومتاحف العالم .

وقد اتسعت حكومة المغوليين اتساعا كبيرا حتى وصلت الى أقصى الحدود فى الهند . فالمناطق البعيدة مثل البنغال التى كانت دولة مستقلة فى الفترات السابقة أصبحت فى أيام المغول ولاية من الولايات المغولية ، وبالرغم من أن البنغال فقدت استقلالها السياسى انها ازدهرت تحت رعاية الأباطرة المغول فى شتى مجالات العلوم والفنون ، حيث إن الولاة المغول اعتنوا بها اعتناء خاصا . وقد عثر على عدد كبير من النقوش الكتابية فى البنغال التى ترجع الى هذه الفترة وهى تشير الى النهضة الحضارية والثقافية التى حدثت فى هذا العصر .

ولما كانت الدولة المغولية مترامية الأطراف فقد انعكس ذلك على نقوش هذه الفترة حيث تنوعت فى جودتها و أساليبها و موضوعاتها و محتوياتها من مكان الى آخر ، و مهما كان هذا الفرق و التنوع فى الجودة و المحتويات ، فان دراستها تحظى بأهمية كبيرة ، فهى تساعدنا فى تحديد الفترة التاريخية لبعض الدويلات والولايات البعيدة التى أهملها المؤرخون لكونها غير مهمة لديهم أو لوقوعها فى مناطق بعيدة عن مركزهم بداهى . و كثير من هذه النقوش يضم الحقائق التاريخية عن الحقب الزمنية المختلفة للحكام والوزراء والولاة والأمراء

وغيرهم. ففى النقوش التذكارية نجد تاريخ الانشاء وصاحبه مما يساعدنا على معرفة التسلسل التاريخى لهذه الفترة بطريقة لا يشوبها شائبة، و المثال على ذلك نقش السلطان محمود شاه بن حسين شاه المؤرخ ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ م الذى عثر عليه فى قرية براماتياباری بمقاطعة پبنا (Pabna) فى بنغلاديش.

و من هذا النقش نعرف أن محمود شاه خرج على الحكومة وأعلن نفسه سلطانا فى وقت مبكر خلافا لما كتبه المؤرخون حيث ذكروا أنه أعلن سلطنته فى سنة ٩٣٩هـ، والحقيقة أنه أعلنها فى سنة ٩٣٤هـ حسب ما جاء فى هذا النقش.

وفضلا عن ذلك، فان شواهد القبور تزودنا ببعض المعلومات المؤكدة عن بعض الجوانب من حياة المتوفى وخاصة تاريخ وفاته. ونعرف من هذه النقوش أيضا كثيرا من الأسماء التى لم ترد فى المستندات التاريخية والمصادر. فهى تسجل مثلا فى بعض الأحيان أسماء البنائين والمشرفين على العمائر والمعماريين والمهندسين و الخطاطين الذين أغفلتهم المؤلفات التاريخية. وقد تكون هذه الأسماء ذات أهمية كبيرة حيث تزودنا بمعلومات جديدة. فهى على سبيل المثال تلقى بعض الضوء على التنقلات والهجرات[1]. وكذلك نصوص هذه النقوش يمكن أن تساعدنا فى التعرف على بعض النواحى اللغوية.

ويمكن أيضا أن نستنبط منها بعض المعلومات عن الأحوال الادارية والاجتماعية والدينية فى تلك الفترة حيث أن بعض هذه الأسماء قد تكون مصحوبة بالوظائف أو الحرف أو المذاهب. فهذه النقوش — كما هو معلوم —

(١) دكتور حسن الباشا. «أهمية شواهد القبور كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية». مجلة دراسة تاريخ الجزيرة العربية، مطبعة جامعة الرياض، ١٣٩٩ هـ، الكتاب الأول، ج ١، ص ٨١ — ٨٣

تشتمل على ألقاب مختلفة أو أدعية متنوعة ، وفضلا عن ذلك فهى تزودنا ببعض الحقائق الهامة عن نظم الحكم و وظائف الجيش .

ومن جانب آخر ، فان دراسة النقوش تفتح لنـا مجالات جديدة للدراسة والمقارنة بالمصادر الأخرى من وثائق ومخطوطات ومسكوكات ومؤلفات تاريخية . فهى بذلك تضيف حقائق جديدة وتصحح أخطاء شائعة حيث أن نصوصها أكثر وثوقا من المصادر الأخرى فى كثير من الأحيان فالنقوش كما هو معروف تعتبر من أصح المستندات التاريخيـــة لأنها مصدر يصعب تزويره أو تغييره ، وهى فى الواقع وثائق أصلية يصعب الطعن فى قيمتها ، ومصدر وثائق لا يمكن تجاهله .

ودراسة النقوش أيضا تساعدنا فى تحقيق الروابط الأسرية بين أصحـــاب الشواهد والأسماء الواردة فى النقوش المختلفـة . وكذلك دراســـة الأحجار التى استخدمت فى كتابة هـذه النقوش قد تساعدنا فى التعرف على المحاجر التى كانت تقطع منها الأحجار فى العصور المختلفة[1] .

فالبنغال التى أراضيها سهلة وخصبة ، تندر فيها الجبال و الصخور . ولـكن معظم نقوشهـا ، من حجـر البازلت الأسود الذى كان يحضر بطريق نهر غنغا من محاجر راجمحل وهى منطقة جبليـة تقع فى شمال غرب البنغال على حدود ولاية بهار . ومن ناحية أخرى فان هذه اللوحات الحجرية تشير الى المهارة التى وصل اليها الفنانون فى تلك العصور فى قطع هذه الأحجار واستعمالها لأغراضهم الفنية مثل النحت والنقش .

ودراســـة هذه النقوش أيضا توضح لنا مستوى الفن فى تطور الـكتابـــة و زخرفتها وجودتها التى وصل إليها الفنانون فى تلك العصور . وهى تمدنا بأسماء

(١) دكتور حسن الباشا . أهمية شواهد القبور ، ص ٨١ — ٨٣

مشاهير الخطاطين فى بعض الأحيان وأسلوبهم فى الكتابــة والطرق التى اتبعوها فى كتابــة النقوش ـــ الأمر الذى لم يعالجه المؤرخون فى كتابتهم لعدم معرفتهم بـه ـــ وهى أيضا تشير إلى التفـاعل الحضارى الذى وقع فى تلك الفترات بين الشعوب والبلدان المختلفــة . فكثرة وجود النقوش باللغة العربية فى البنغـال فى العصور الاسلامية المبكرة تدل على أثر انتشار الحضارة العربية الاسلاميــة بين أفراد الشعب. أما فى العصر المغولى فنجـد نقوشها باللغة الفارسيــة الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ الثقافة الفارسية فى هـــذه المناطق فى هذه العصور حيث كانت الفارسية اللغـة الرسمية فى عهدهم . ونستطيع أن نقول ان دراسة النقوش تعـد حلقـة تاريخية لها أهميتها تكمل الحقبة التاريخية . وهى تلق الضوء على مدى تطور بعض الجوانب فى الفنون والحضـارة خلال تلك الفترة ومستوى تقدمها ، والتى قد تبقى مجهولة اذا لم تدرس هذه النقوش .

